هذا من حيث الحقيقةُ العلمية وكيفيةُ الوصول اليها . ولو لم يكن في الامر غير ذلك لما اجهدنا نفسنا في تلخيص مقالة كلها كلمات ومصطلحات علمية ولكن فيهِ شيئين آخرين حريين بالنظر الاول ان الفرفرال المشار اليهِ وكل المواد المماثلة لهُ تكون كثيرة في الاشربة الجديدة وقليلة في الاشربة العتيقة او البالغة وهذا ينطبق على ما يُعلم من ان المسطار اي الخمر الحديثة تصرع شاربها كما جاء في كتب اللغة العربية منقولاً عن اخبار الناس في العصور الغابرة . والثاني ان هذه المواد تتكوَّن من فعل الحوامض بالسلولوس وهذا السلولوس كثير في الحبوب وقليل في العنب فالاشربة التي تُصنع من الحبوب او من السبيرتو الافرنجي المستخرج من الحبوب يُنتظر ان تكون هذه المواد اكثر فيها منها في الاشربة المستخرجة من العنب . وهذه الحقيقة حرية بالاعتبار من باب تجاري لدى صانعي الاشربة اللبنانية فانهم اذا اثبتوا بالامتحان الكيماوي ان اشربتهم خالية من الفرفرال او هو اقل فيها منهُ في غيرها من الاشربة كان ذلك مروِّجاً لتجارتهم كما هو مقال لضرر الذين يشربون

معرض باريس العام

سنة ١٩٠٠

الباب الثاني عشر في تزيين المباني وتأثيثها وتحتهُ عشرة فصول مختلفة الاول في تزيين المباني بالخشب والحجر والخزف والمرمر والحديد والرصاص والنحاس. والثاني في تزيينها بالزجاج الملوَّن . والثالث في تبطين جدرانها بالورق المنقوش . والرابع في تزيينها بالصور والنقوش بالفسيفساء ونحوها. والخامس والسادس في البسط والستائر والكراسي والمقاعد والموائد والخزائن وما جرى هذا المجرى . والسابع في الخزف على انواعهِ والثامن في الزجاج على انواعهِ والتاسع في طرق التدفئة والتهوية وآلاتهما . والعاشر في طرق الانارة وآلاتها ما عدا الكهربائية

وهذه الاشياء معروضة في مباني الانثاليد ولفرنسا النصيب الاكبر منها كما لها النصيب الاكبر من المعرض كلهِ وقد ابدعت في هذا الباب كما ابدعت في غيرهِ لان الزخرفة والزينة مما امتاز بهِ الفرنسويون عن غيرهم وملأت بمعروضاتها ومعروضات الباب الخامس عشر الآتي ذكرهُ النصف الايسر من المباني التي شيدت في ساحة الانثاليد لهذا الغرض وجانباً من النصف الايمن ولم تعرض آلات التدفئة والتهوية هنا بل في بناء خاص على ضفة السين كما سيجيء

مَن عانى حرفة التدريس في المدارس العالية ورأى ابناء الاغنياء يجلسون مع ابناء

الفقراء على مقعد واحد ويدرسون في كتاب واحد وقد يمتاز ابن الفقير على ابن الغني باعتدال القامة وجمال الطلعة وصحة الجسم وتوقد الذهن وسرعة الخاطر ثم دخل بيتي ابويهما ورأى كوخ الفقير بيتاً صغيراً حقيراً من الطوب او الحجر الساذج ليس فيهِ من الاثاث غير حصير وفراش ودثار وقليل من مواعين الاكل والشرب . ثم رأى قصر الغني بغرفهِ ومقاصيرهِ من الحجر النحيت والرخام والمرمر فيهِ التماثيل الناطقة والصور الفاخرة والاثاث والرياش من الحرير والديباج والبسط والستائر والكراسي والموائد وآنية الطعام والشراب من الفضة والذهب والصيني والبلور وخزائن الثياب واسفاط الحلي وقف مدهوشاً من مقدرة المال على التفريق بين الناس في هذه الاعراض الفانية وعجزهِ عن التفريق بينهم في مقوّمات الانسان في الجسم والعقل والاعتدال والذكاء

وقد طالما وقفنا هذا الموقف من حين ادركنا سن التمييز بين الناس وكنا نزيد دهشة اذا دخلنا قصور الملوك وبعض الاغنياء في هذا القطر والديار الاوربية ورأينا ما فيها من دلائل الترف والاسراف ولكننا لم نقف على طرفي النقيض كما وقفنا في معرض باريس لما دخلناهذا القسم بعد ان مررنا على اكواخ اهالي مدغسكر وخصاص اهالي افريقية . ولو زار الارض احد سكان المريخ او الزهرة ورأى اكواخ اهالي مدغسكر او السنيغال وهي لا تكاد تفرق عن المظال التي يبنيها نوع من قرود افريقية او العشاش التي تبنيها الطيور ورأى ما فيها من الامتعة القليلة الساذجة ثم دخل المباني التي عرضت فيها فصول هذا الباب وقلتَ لهُ ان المكتفين بتلك الامتعة والذين لا تكفيهم هذه اخوان من نوع واحد ولا يمتاز احدهم عن الآخر بشيءٍ من مقومات النوع لظنَّك تهزأ بهِ وثبت لهُ المحال

ولقد جلت في مباني الاتاليد مراراً وكنتُ انتقل من القسم الفرنسوي الى اقسام سائر الدول العارضات هناك فتمضي الساعة بعد الساعة وانا اقلب طرفي في بدائع الصناعة ومغالاة الصنّاع في اتقان مصنوعاتهم ومباراتهم بعضهم بعضاً في هذا السبيل حتى كأنهم خيل رهان . واري ان هذه المناظرة لا تقتصر على الصناع انفسهم الذين قد يغرمون بصناعاتهم حتى لا يدّخروا وسعاً ولا تعباً في سبيل اتقانها بل يتناول اصحاب المعامل الذين غرضهم الاكبر توفير المكاسب لانهُ يظهر مما عرضوهُ انهم هم ايضاً مغرمون باتقان الصناعة ولهم في ابلاغها اسمى الدرجات ولعلَّ يكاد يخرجهم عن حد الاقتصاد التجاري . كنت افعل ذلك ثم اقول في نفسي ان كل ما هو معروض هنا نمت اصولهُ في بلادنا الزجاج والخزف المدهون والمنقوش والفسيفساء والبسط والستائر والكراسي والموائد والموشّى والمطرّز والمطعّم والمرصّع ولم يزل لبعض امم المشرق

السبق في كثير من ذلك حتى ان الاوربيين انفسهم يدخلون قصور ملوك المشرق فيعترفون ان ليس في بلادهم مثلها فخامة ونقشاً وزخرفة فعلى مَ قصَّر الشرقيون في ميدان المناظرة وعلى مَ لا تفيض مصنوعاتهم على الدنيا كما فاضت مصنوعات الاوربيين ثم اعود الى الفارق الكبير بيننا وبينهم وهو ان ولاة امورهم اعوان لهم وولاة امورنا عوائق لنا

وترى بين هذه المعروضات ما هو ثمين جداً لما يقتضي عملهُ من الوقت والمشقة وبعضها صار ارخص من سقط المتاع . سمنا صحفة فيها صورة جميلة فقيل لنا انها تساوي الفي فرنك لانها مصنوعة بقلم مصور ماهر وسمنا كأساً عليها صورة اخرى فقيل لنا انها تساوي مئة وخمسين جنيهاً لانها وحيدة . وهذه الكاس وتلك الصحفة ليستا من اثمن ما صنعهُ الصناع بل ان من المصنوعات الخزفية ما تساوي القطعة منهُ آلافاً من الجنيهات لندرتها او لان صانعها مات فيراد الاحتفاظ بها اثراً لها وانموذجاً يحتذيهِ الصناع . وبسط غوبلين التي تصنع الآن وليس لها قيمة تاريخية بل قيمتها في ما يقتضيهِ عملها من الوقت والمشقة يساوي المتر المربع منها اربعين جنيهاً او اكثر . لان الخيوط التي تصنع منها ملونة باكثر من الف واربع مئة لون مختلف وعلى الصانع ان يمرّن عينيهِ على الفرق بينها ولا يتم لهُ تمرين عينيهِ ويديهِ على تمييز الالوان واختيارها في اقل من خمس عشرة سنة . وهو مهما كان بارعاً لا يصنع في السنة اكثر من ثمانية امتار مربعة تباع بثلاثمئة وخمسين جنيهاً . لكن المصنوعات الرخيصة الثمن كثيرة جداً وكلها مما اختُرعت لهُ آلات تصنع الكثير منهُ بسرعة فلا يضطرُّ مهرة الصناع الاَّ الى عناء قليل في تهذيبهِ

هذا ولنعد الى التفصيل بعد هذا الاجمال فنقول ان فرنسا قد ابدعت في ما عرضتهُ في القسم الاول من رسوم المباني واشكال السقوف والابواب والشبابيك ومنقوشات الرخام والجص ورب الورق والتماثيل الكثيرة الداخلة في هذا الباب وابواب الحديد والنحاس والمناور والتصوير على الحجر والخشب والمعدن وعمل الصور من قطع الفسيفساء والمينا وبناء القبب والاقبية وادخال الاجر المدهون في ذلك بعد نقشهِ بالوان جميلة يتألف منها صور شتى بين ازهار واطيار وحيوانات وما اشبه مما يطول شرحهُ

وقس على ذلك الزجاج الملوَّن الذي يوضع في الكوى فتكون منهُ صور باهية الالوان متناسبة الاجزاء كانها صُوِّرت بقلم امهر المصورين وما هي الاَّ قطع مفصولة مختلفة الالوان ضُمَّ بعضها الى بعض فصارت منها تلك الصور . ومن ابدع ما شاهدناهُ من هذا القبيل رسوم تمثل الاربعة الانهار التي كانت في الفردوس على ما في سفر التكوين رسمها المسيو لامير لتوضع في كنيسة اليونان بباريس ترى فيها الغزلان والظباء والايائل والاراوي واردة الماء وهو يتدفق امامها

وللاوربيين ولع شديد بوضع الزجاج الملوّن في كوى كنائسهم باديةٌ فيهِ صور القديسين والملائكة بالوان زاهية جدًّا من الاحمر الياقوتي الى الازرق اللازوردي والاصفر الزعفراني وما بينها من الالوان الممتزجة. ولصنّاعهم مهارة فائقة في ذلك لا نظن ان احدًا من صنّاع المشرق يباريهم فيها الآن او حاول السير في هذا المضمار في العصور الغابرة . وقد رأينا بين آثار العرب كثيرًا من الزجاج الملوّن والمعرّق ولكننا لم نرَ زجاجًا مصنوعًا من قطع مختلفة الالوان تتألف منها صور محكمة

ومما هو شائع عند الاوربيين ولم نرَ لهُ اثرًا في بلدان المشرق قبلما اخذناهُ عنهم تبطين جدران البيوت بالورق المنقوش . وقد اتقنوا صناعة هذا الورق وعرض منهُ الفرنسويون والانكليز وغيرهم اشكالاً بديعة جدًّا تراها فتحسبها نقوشًا بالزيت على الجدران او النسجة من الحرير والكتان موشاة معرّقة مطرزة كابدع ما صنعهُ النسّاجون كأن المراد بها ان لا يدري رائيها انها ورق . ولا ندري ما نوع الادهان التي طبعوها بها ولكن يغلب على الظن ان البعض منها سام فيهِ الزرنيخ ينتشر منهُ في هواء الغرف ويضرُّ بساكنيها ولو قليلاً لكن لها كلها فائدة لا تنكر في تربية الذوق على محبة الجمال والارتياح اليهِ فان اكواخ الفقراء تماثل بها قصور الملوك من حيث زخرفة الجدران وتزويقها بالصور الجميلة فينشأ اولادهم على حب الجمال والنفور من كل ما هو قبيح سمج ولا تنكر فائدة ذلك في تربية الامم وارتقائها

ومن هذا القبيل تزيين البيوت بالصور والنقوش والفسيفساء وقد كان ذلك كلهُ شائعًا عند المصريين والاشوريين لكن يظهر من آثارهم انهم كانوا يقتصرون على تزيين هياكل الآلهة وقصور الملوك ومدافن الاموات واما بيوت جمهور الناس فكانت اكواخًا عاطلة من كل زينة . وتقدَّم عليهم اليونان والرومان كما يظهر من البيوت التي كُشفت في خرائب بمباي وهركولانيوم فان التجار والعلماء ورجال السياسة كانوا يزينون بيوتهم باجمل النقوش والزخارف كما يزينون هياكلهم. ومما هذا الخلق في الاوربيين الذين جاءوا على اثرهم ولو كانوا من برابرة الشمال . والظاهر ان الميل الى التمثيل والتزويق قديم فيهم من حين كانوا همجًا يعيشون بالصيد والقنص كما يظهر من رسمهم صور الحيوانات التي كانوا يصيدونها على عظامها فلما تدمّثت اخلاقهم وتهذّبت عقولهم فاقوا امم الارض في هذا المضمار

اما البسط والستائر والكراسي والخزائن وما جرى هذا المجرى فحدِّث عنها ولا حرج. وقد نصب النسّاجون انوالهم في المعرض ينسجون بها البسط العجمية ومطارف الخز والديباج والقطيفة والاستبرق . وفرشت غرف كثيرة فرشًا فاخرًا لا تملُّ العين من النظر اليهِ . وتفنن الصناع

في الخشب والمعدن فمثلوا الغيد الحسان والضواري والكواسر وسائر ضروب الحيوان والازهار والاثمار والادواح والرياحين والحوادث التاريخية والافاصيص الوهمية حتى لم اتمالك عند رؤيتها من انشاد ابيات من رائية ابن حمديس الصقلي التي وصف بها دار المنصور بن اعلى حيث قال

وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيهِ زئيرا
فكأنما غشّى النضار جسومها واذاب في افواهها البلّورا
اسدٌ كأنّ سكونها متحرّك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكّرت فتكاتها فكأنما اقعت على ادبارها لتثورا
وبديعة الثمرات تعبرُ نحوها عيناي بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبيّة نزعت الى سحر يؤثّر في النهى تأثيرا
قد صوّبت اغصانها فكأنها قبضت بهنّ من الفضاء طيورا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
وتريك في الصهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ومصفّح الابواب تبرًا نظّروا بالنقش فوق شكوله تنظيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفهِ ابصرتَ روضًا في السماء نضيرا
وضعت بهِ صنّاعها اقلامها فارتكَ كلّ طريدة تصويرا

من امثال العامّة في القطر السوري الدالّة على احتقارهم صناعة الفخار وازدرائهم اصحابها قولهم "مثل الفواخرة لا دنيا ولا آخرة" لكن هذه الصناعة من اقدم الصنائع التي اتقنها الناس وقد بقي اهالي المشرق الاقصى مستأثرين باتقانها قرونًا كثيرة وبذل اهالي اوربا النفس والنفيس في اخذها عنهم او تقليدهم بها كما يُعلَم من سيرة بالسي وبتغر وودجود الخزافين الثلاثة العظام الذين ورد تاريخهم في كتاب سر النجاح . وقد ارتقت على يد خلفائهم وبلغت في هذا العصر مبلغًا لم يحلم بهِ اهل العصور الغابرة كما يعلم كل من رأى انواع الخزف الفرنسوي والانكليزي والالماني والايطالي المعروضة في هذا المعرض ورأى المزاهر والكؤوس والصحاف التي صنعت في معمل سڤر بفرنسا وما عليها من الصور والنقوش

ومن غريب امر الصنّاع انهم يعدلون عن الطريق المطروق من وقت الى آخر لكي يزيدوا رغبة الناس في شيء جديد يستنبطونهُ لهم ولو عثروا عليهِ اتفاقًا او كان من الخطإ في صناعتهم لكي لا تسأم النفوس من الاستمرار على شيء واحد. ومما عثروا عليهِ حديثًا وكانوا يعدونهُ خطأً فرأوا فيهِ سبيلاً جديدًا للنجاح تبلور الدهان ببلورات مشعّة كالنجوم . والظاهر ان خزّافي

الدنمارك هم اول من رأى الاحتفاظ بالآنية الخزفية التي يتبلور دهانها حاسبين ان الناس سئموا ما دهانهُ منتظم . فكان كما ظنوا. وللحال تذكر غيرهم من الخزافين ان تبلور الدهان كان يعرض لهم احياناً فيكسرون الآنية التي عرض لها حاسبين انهُ خطأ وقع فيها فصاروا ينتبهون الى هذا الخطإ ويحاولون تكريرهُ بالصناعة. وراجت مصنوعاتهم التي من هذا القبيل وتفننوا فيها على اساليب شتى ومزجوا البلورات بالنقط البرّاقة التي تكون في بعض انواع الخزف المدهون فكان من مزيجها اشكال جميلة ترى الخزف يتألق بها كأنهُ مرصع بما لا يحصى من الحجارة الكريمة

ومن هذا القبيل تقليد الزجاج القديم الذي يحل النور فتنعكس عنهُ كالوان عنق الحمام او عرق اللؤلؤ فقد اكتشف سرّ هذه الصناعة رجل في انكلترا وآخر في فرنسا وآخر في ايطاليا ثم اقتدى بهم غيرهم وكثرت مصنوعاتهم ولمعانها معدنيٌّ لكن منظرها غير جميل وقلّدوا الزجاج القديم الذي في قبور الفينيقيين وقد اذابت صقالهُ الاملاح التي في التراب فصار يحل النور كابدع ما يكون قلّدوهُ حتى يعسر الفرق بين القديم والمصنوع على مثالهِ

وكما تفننوا في الخزف المدهون والصيني على انواعهِ تفننوا في الاجر المدهون والملون ورسموا بهِ صوراً جميلة كالفسيفساء جارين مجرى الفرس وعرب اسبانيا في صناعة القيشاني . ولليابان جانب كبير من معروضات هذا الباب كما لها في سائر الابواب

اما الزجاج فاغرب ما عُرض منهُ الالواح الكبيرة التي يزيد طول اللوح منها على ثمانية امتار وعرضهُ على اربعة امتار والقطع المكعبة التي تستعمل للبناء والرصف بدل الحجارة والبلاط. وقد اقيم بناء كبير بجانب برج ايفل من الزجاج لا غير . اما اشكال الاقداح والمزاهر والمصابيح والاباريق والوانها ونقوشها فما يفوق الوصف ولو لم يظهر ان فيها اختراعاً جديداً. وقد دخلت معمل سبك الزجاج ورأيت الصناع يصهرونهُ وينفخونهُ ويشكّلونهُ ويلوّنونهُ ويخرطونهُ وينقشونهُ ويكتبون عليهِ اسماء المشترين وهو في يدهم ألين من الخزف في يد الفخاري . صناعة قديمة اكتشفها ابناء المشرق منذ الوف من الاعوام واتقنوها حتى صاروا يصنعون عيوناً لا تفرق بينها وبين العيون الطبيعية ثم انحطت في يد ابنائهم حتى لم يبقَ منها الاّ عمل الاساور والدمالج فشاد ابناء المغرب معالمها وصنعوا من الزجاج خيوطاً تُنسج وحجارة تُبنى ونحتوا منهُ آلات يرون بها اصغر احياء الارض وابعد كواكب السماء

ويلي هذا الفصل فصل التدفئة والتهوية وآلاتهُ وادواتهُ معروضة وحدها في بناء كبير على ضفة السين الجنوبية وهو اشبه بمخزن تجاري منهُ بمعرض صناعي وقد تبارت المعامل الصناعية في عرض معروضاتها وغرّض كلٌّ منها اقناع الناظرين بفضل مصنوعاتها حتى يبتاعوا منها ما

يحتاجون اليهِ لان وسائل التدفئة والتهوية من اهم ما يطلبهُ الناس في البلدان الباردة . وتبتدىء المعروضات بما يستعمل لتدفئة البيوت بالبخار او بالماء السخن او بهما معاً ثم بوسائل التهوية الطبيعية والصناعية . لان تدفئة البيوت بالنار المكشوفة فيها تعرّضها لفساد الهواء فاذا كانت المواقد متّصلة بانبوب كبير ممتد من فوق النار الى اعلى سطح البيت سار الهواء البارد من الغرفة ومرَّ فوق النار وصعد في هذا الانبوب فيصلح الموقد لتدفئة الغرفة وتجديد هوائها في وقت واحد . ولم يقف الاوربيون والاميركيون عند هذا الحد بل دفأوا بيوتهم بالهواء السخن او الماء السخن او البخار السخن يجرونها في انابيب تمر حول الجدران حتى يقال ان بيوت بطرسبرج في اقصى الشمال ادفأ في الشتاء من بيوت القاهرة

واذا قلنا مواقد النار وانابيب البخار فاول ما يخطر على البال ادوات من الحديد او الخزف سوداء قبيحة المنظر لكن الصنّاع لا يتركون شيئاً قبيحاً وقد تفننوا في زخرفة كل وسائل التدفئة حتى صارت من ادوات الزينة في البيوت بل من اجمل ادوات الزينة فيها . واظهروا مهارتهم في ذلك بما عرضوهُ في هذا الباب من مواقد الحديد والنحاس والنكل والمرمر والحجر والخزف وما فيها من النقش البديع

وادخلوا مع وسائل التدفئة وسائل الطبخ من المواقد والافران على انواعها ولاسيما ما استُنبط منها حديثاً مما ينضج فيهِ الطعام ويجود طعمهُ ويسهل هضمهُ ولا يتلف شيء منهُ . ومن رأى فقراء الفلاحين يضعون قدرهم على الاثافي او عرب البادية يشوون الجزور حنيذاً وقد مرَّت على هؤلاء واولئك ألوف من الاعوام وهم على منهاج واحد من غير تغيير وعلم ان اهالي اوربا كانوا مثلهم او اخط منهم منذ اقل من الف عام ثم ارتقوا هذا الارتقاء العظيم لم يسعهُ الاَّ ان يقف مدهوشاً و يسأل عن الاسباب التي رقّتهم واوقفتنا او اخَّرتنا

ومن اول اسباب الارتقاء والنجاح في الاعمال استنباط وسائل القياس فترى الاوربيين والاميركيين يفعلون كل شيء على قدَرٍ وقياس فيقيسون الحرارة والرطوبة والضغط والقوة ويتحكمون في كل شيء . وترى هذه المقاييس كثيرة بين هذه المعروضات كمقاييس الحرارة والرطوبة وضغط الهواء وضغط البخار واساليب التحكم فيها حتى لا تغلب عليهم قوة من قوى الطبيعة بل تخضع كلها لا مرهم وتجري على حسب مشيئتهم وهذا من اسرار نجاحهم في كل اعمالهم

واذا كان التفنُّن في آنية الزجاج والخزف والمعدن قديماً فالتفنن في طرق الانارة حديث جدًّا وقد بقي الناس الوفاً من الاعوام يستصبحون بزيت الزيتون وشمع النحل وقصروا همهم وتفننهم على مادة المصابيح وشكلها فصنعوها من الخزف والزجاج والنحاس والفضة والذهب وتصرَّفوا

في اشكالها من الصدفة البسيطة الى التماثيل البديعة التي سبكها امهر صنّاعهم . لكن طرق الانارة بقيت على حالها الى ان اتفق لبعضهم ان وضع انبوباً من الزجاج فوق مصباح مشتعل فرأى نورهُ يزيد اشراقاً فانتبه اخوهُ الى ذلك وكان يبحث عن طريقة لاصلاح المصابيح ومن ثم صارت توضع المداخن فوق المصابيح لكي يزيد الهواء المار على لهب المصباح ويتم احتراق الزيت فيسطع نورهُ . ثم وُجد الغاز وزيت البترول وصُنعت المصابيح الكهربائية وفتائل اور التي تحمو الى درجة البياض وتنير بنور ساطع يزري بالنور الكهربائي . وآخر الكل استنبطت مصابيح السبيرتو والاسيتلين وارسل البترول الى المصابيح بانابيب دقيقة . وتاريخ اكثر هذه المصابيح معروف عند قراء المقتطف والكهول منهم يذكرون الايام التي كانوا يستصبحون فيها بمصابيح زيت الزيتون . فكل هذا الارتقاء العظيم في اساليب الاستصباح حدث منذ اربعين عاماً الى الآن واكثرهُ حدث في الخمسة عشر عاماً الاخيرة . وهذه الاساليب معروضة كلها في هذا الباب ما عدا اساليب الانارة بالكهربائية فانها معروضة في باب سابق كما تقدّم وهي الوحيدة في خضوعها التام لارادة الانسان على ما لها من الحوْل والطوْل ولذلك انير المعرض كلهُ بها واستُخدمت لاظهار بهجتهِ وزينتهِ

الباب الثالث عشر في الغزل والنسج والثياب وفصولهُ احد عشر فصلاً معروضة في شان دو مارس الاول في الغزل وفتل الحبال والثاني في النسج والثالث في قصر المنسوجات وصبغها وطبعها وتهذيبها . والرابع في التفصيل والخياطة . والخامس في خيوط القطن ومنسوجاتهِ بنوع خاص . والسادس في خيوط الكتان والقنّب والرامي والصبر ومنسوجاتها والحبال التي تصنع منها . والسابع في خيوط الصوف ومنسوجاتهِ . والثامن في الحرير ومنسوجاتهِ . والتاسع في الخرج والتطريز والزركشة . والعاشر في خياطة الثياب للرجال والنساء والاولاد . والحادي عشر في ما يدخل مع الثياب كالجوارب والاحرمة والبرانيط والمشدّات والمظلاّت وما اشبه

ولا يخفى ان الغزل والنسج وخياطة الثياب وتوشيتها وتطريزها من اقدم الصنائع التي عمل بها الانسان وقد اتقنها القدماء من عهد المصريين والاشوريين والفينيقيين والعبرانيين ولا تزال منسوجاتهم في المتحف المصري ومتاحف اوربا شاهدة لهم بانهم بلغوا في هذه الصنائع شأواً لم تفقهم فيهِ اوربا الاّ منذ مئة عام . لكن اهالي المشرق وقفوا عند الحد الذي بلغهُ اسلافهم او تأخروا عنهُ واهالي اوربا ساروا في مئة عام اكثر مما سارت امم المشرق في الف عام ساروا سيراً يدهش كل من ينظر اليهِ اذا ادرك ما يرى بعينيهِ وعلم تاريخ كل آلة من الآلات التي استنبطوها

وما عانى مستنبطها من المشقّة في استنباطها او قرأً على الاقل الملخّص المذكور في سر النجاح عنها

وفصول هذا الباب زينة المعرض وواسطة عقده واليها تسير اقدام النساء بنوع خاص حتى لقد يتعذّر على المرء المرور حيث عُرضت الثياب والازياء. وقد شاهدت هذه المعروضات بعد ما رأيت قصور الدول ومعرض مدينة باريس وقصر الازياء وفيها كلها ما يعجز القلم عن وصفهِ من الحلل الفاخرة ولم اكن احسب ان قد ترك الاول للآخر شيئاً فلما رأيتُ ما هو معروض هنا قلتُ في نفسي حقًّا ان الدافع الاول للبس الثياب هو الزينة والامتياز لا الدفء ولا التستر كما اوضحتُ ذلك قبلاً في مقالة موضوعها من الحلى الى الحلل. فان هذه الثياب التي نراها هذه الموشّيات والمطرزات هذه الانسجة التي تقف على اذيالها لصفاقتها او تطير في الهواء لخفتها هذه المخيطات التي يبدو منها جمال الصدر والخصر والعنق والمنكبين وكلٌّ منها يمتاز عن الآخر ولو عُدّت بالمئات والالوف لا يمكن ان يكون الغرض منها ستر عرْي او دفع برْد. وقد زادها الصنّاع جمالاً بما صنعوهُ لها من تماثيل الشمع الاسيلة الخدود النجلاء العيون وما على رؤوسها من غدائر الشعر المعقوص على اساليب شتّى حتى كأن الجمال كلهُ جُمع في تلك الخزائن

ولم يقتصر العارضون على عرض حلل النساء بل عرضوا ايضاً ثياب الاولاد والرجال والحلل الملكية والعسكرية على اختلاف انواعها واشكالها. وهذه ايضاً لا تخلو من الزينة والزخرفة ولاسيما حلل الملوك والاساقفة والقوّاد والقسوس لاغراض لا تخفى على البصير وهي تفوق في زخرفتها كل ما تلبسهُ اشد الغواني ترفًا

ويغلب على ظني ان كل مَن زار المعرض من سكان القطر المصري امعن نظرهُ في آلات الغزل والنسج التي فيهِ كما امعنتُ نظري فيها ولا سيما لان جانباً كبيرًا من قطنها وصوفها وحريرها وكتانها ترد اليها من القطر المصري والقطر الشامي فيودُّ ابناء هذين القطرين ان يعلموا ماذا يُفعل بقطنهم وصوفهم وحريرهم وكتانهم حتى صارت منسوجات اوربا ارخص من منسوجاتنا على غلاء الاجور فيها ورخصها في بلادنا. ولما رأى مديرو معامل الغزل والنسج انني ارغب في الوقوف على دقائق صناعتهم لم يدّخروا وسعاً في اطلاعي على كل شيء فاروني كيف ينظّف القطن ويندف لا بالقوس والوتر بل باسطوانين ذات اسنان كريش القنفذ تنسل خيوطهُ نسلاً ثم يجمع النسل عنها فتائل اثخن من الابهام وتمدُّ هذه الفتائل وتفتل فتصير خيوطاً دقيقة ثم تلفُّ على الوشائع وتثنى وتثلّث. والآلات الغزل مختلفة الانواع والاشكال وكل آلة تعمل اعمالها بما لا مزيد عليهِ من الدقة حتى لو كان لها عقول ثاقب ما احكمت اعمالها اكثر مما تحكمها الآن بل هي في حالتها الحاضرة اقدر على الدقة والاحكام من كل صانع ماهر لان الصانع

يضجر ويملّ وينسى ويخطئ واما هي فلا يعتورها شيء من ذلك

وآلات النسج لا تقصر في دقتها واحكامها عن آلات الغزل ولا سيما اذا نُسج بها نسيج معرَّق او معلم او مخمل او مخرَّم

والذي يرى خيطًا ابيض بسيطًا ملفوفًا على بكرة او منديلاً ملوَّنًا بنسجه او بصبغه لا يخطر لهُ ان ذاك الخيط وهذا المنديل مرَّا على اكثر من ثلاثين آلة مختلفة قبلما خرجا من ايدي الصناع ودخلا في ايدي التجار . وهذه آلات معروضة كلها في هذا المعرض فقد رأيت بين معروضات اخوان بلات وشركائهم نحو اربعين آلة مختلفة بعضها لحلج القطن وبعضها لتفتيحه وتنظيفه وبعضها لندفه وبعضها لغزله وبعضها لفتله وبعضها لنسجه وربما عدتُ الى وصفها في باب الصناعة في فرصة أُخرى . وعلمتُ من مدير هذا المعمل أن نقل هذه الآلات من البلاد الانكليزية الى البلاد الروسية ووضعها في اماكنها اقتضى لهُ من النفقة قدر ثمنها فاذا ابتعنا آلات معمل للغزل والنسج بعشرين الف جنيه اقتضى ان ننفق عليها عشرين الفًا اخرى حتى تنقل الى بلادنا وتركب في اماكنها وتدار فيها قبلما تعمل عملاً مندَّ ربح وذلك لغلاء اجرة الصناع الذين يؤتى بهم لتركيبها وادارتها . وذاكرتهُ مليًّا في ربح معامل الغزل والنسج فارافي مقاييس وجداول يعلم منها مقدار ما يغزل وينسج بالآلات اذا عرف ثمنها . وبعد حساب طويل اكد لي ان الربح في القطر المصري لا يقل عن عشرة في المئة ولو اضيف الى رأس المال نصفهُ اسمًا للمؤسسين لكن هذا الربح لا يتحقق في السنة الاولى التي يدار فيها المعمل بل في السنة الثانية وما بعدها

ومما يستوقف النظر بنوع خاص انوال النسج المعرَّق والملوَّن والمزركش فانها تنسج الوانًا كثيرة من وشائع مختلفة . وفي النول سواعد ترمي الوشيعة المطلوبة من نفسها تختارها من بين وشائع عديدة لانها تكون في كوًى بعضها فوق بعض متصلة بآلة ترفعها وتخفضها حتى تكون الوشيعة المطلوبة منها امام فتحة السدى فتضربها ذراع مرنة قائمة وراءها ضربات متوالية حسب المطلوب وترتفع الكوى حينئذٍ او تنخفض حتى يكون امام فتحة السدى الوشيعة الاخرى التي يأتي لونها بعد لون الاولى وهلم جرًّا . وخيوط السدى ترتفع وتنخفض وتجتمع وتفترق تبعًا لقطع من الورق المقوّى فيها خروب حسب النقش المراد توشية النسيج به وهذه القطع تضغط على ابر كاسنان المشط فتنضغط تحت ما لا خرق فيه وتبقى على حالها تحت الخرق وتتصل حركاتها بخيوط السدى فترفعها او تخفضها حسب المراد

واغرب من هذا الاسلوب اسلوب الذراع وهو ذراع طويلة لها اصبع يدلُّ بها على رسم

مرسوم امام الحائك فليس عليهِ الاَّ ان يمسك هذه الذراع بيدهِ ويدل باصبعها على نقط مختلفة في الرسم فتتقدم او تتأخر او تعلو او تسفل حسب موقع تلك النقط في الرسم ويتحرك طرفها الآخر وهو متصل بالسدى فيحركها وينسج منها شكلاً مثل الشكل الذي امامهُ. وترى الحاكة رجالاً ونساء دئبين على اعمالهم ينسجون المقاطع الكبيرة او المناديل الصغيرة يرسمون فيها صور المعرض او صور الملوك والملكات او صور القديسين والقديسات امام عين الرائي. وهانذا اكتب هذه السطور وعيني تقع في فترات الكتابة على مناديل من الحرير الملون نُسجت امامي في نول فرنسوي وعليها صورة قصر الكهربائية من قصور شان ده مارس وصورة قيصر الروس نقولا الثاني ورئيس الجمهورية الفرنسوية المسيو لوبه وعلَم الروس وعليهِ النسر الروسي وعلَم الفرنسويين وعليهِ الحرفان R.F. واشعة النور الكهربائي متألقة فوق القصر كأنها الشمس في بهائها ومياه الشلاَّلات والفساقي متصببة امامهُ يحيط بها اكليل من الغار والسنديان وقد كتب فوقها بحروف سوداء وبيضاء المجد للقرن العشرين وتحتها تذكار المعرض قصر الكهربائية. وارض المنديل من الاحمر او الاخضر او البرتقالي او الرمادي والنقش عليهِ من لونهِ ومن الابيض والاسود

ومما يستوقف النظر ايضاً انوال نسج التول المخرَّم المعرَّق الذي تصنع منهُ الستائر الكبيرة. يقف الرائي امامها ساعة بعد ساعة يرقب حركاتها وسكناتها فيراها تحيك وتحيك وتنك وتعقد وتنسج الاوراق والازهار والخطوط والعروق والدوائر والمقنطرات والحائك لا يمدُّ اليها يداً الاَّ اذا انقطع منها خيط فيوصلهُ. ومن رأى فتاةً من بنات هذا العصر تقيم ساعة بعد اخرى على حبك زهرة واحدة من زهر التتن او الدانتلاً ثم رأى مئات من مثل هذه الازهار تحبك في دقيقة من الزمان ارتفعت في عينيهِ مقدرة العقل الذي صنع آلة امهر من يد الانسان. لكن المصنوعات اليدية لم تفقد شيئاً من رونقها ولا خسرت من قيمتها ولا يزال الاوربيون يغالون بها كما كانوا يغالون في العصور الغابرة وقد عرض امراؤهم واغنياؤهم قطعاً كثيرة منها مما حبكتهُ ايدي النساء وباع المتر منهُ بما يزيد على وزنهِ ذهباً

ومنهُ انوال نسج الجوارب والكنوف والقمصان وما اشبه مما يُحبك حبكاً. وهذه ايضاً قد قامت مقام الحبك بالصنَّارات. ويشاهد منها في المعرض ما يحبك القميص من لونين او ثلاثة او اكثر ويصنع الجورب في بضع دقائق

ومعلوم ان القصد من عرض هذه الآلات ترغيب الطلاب في ابتياعها من معاملها وقد بيع كثير منها مواراً ومن ذلك آلة سويسرية للغزل تدور بسرعة البرق حتى يظن الناظر اليها

ان مغازلها ثابتة لسرعة حركتها وقد اشترتها حكومة الروس لمدارسها الصناعية

ولما شبعت من الوقوف امام الآلات الفرنسوية والانكليزية والالمانية لان النفس تشبع من الفوائد كما تشبع المعدة من الطعام قيل لي انك لم ترَ معروضات اليابان في هذا الباب كما رأيتها في غيره من الابواب فهرولت اليها وانا احسب انني لا ارى فيها غير ما اعتدنا رؤيتهُ في هذه العاصمة من منسوجات اليابانيين وموشياتهم فلما وقع نظري عليها واجلت طرفي فيها اكبرت امر هذه الامة التي جارت الاوربيين في كل شيء فترى بين معروضاتها البرانيط من كل الاشكال والانواع والانجاف المطرزة وعليها صور الاطيار والازهار بالوانها الطبيعية تحسبها بالأزة منها كأنها موضوعة امامها وضعاً لا منسوجة فيها نسجاً وصوراً كثيرة في رباط من الحرير تعلق في البيوت بدل صور الزيت. في واحدة منها صورة امرأة مكسال والسبحة في يدها وفي اخرى صور بط واوز والريش منهُ لامع كأنهُ خرج من الماء وانعكس عنهُ نور الشمس . وفي اخرى صورة ديك ودجاجة رفقاء وفراخها معها . وفي اخرى صورة شجرة مزهرة والطيور تحتها . وفي اخرى صورة صخر في البحر وقف عليهِ نسر كأنهُ ملك على عرشهِ . وفي اخرى صور كلاب صيد جارية تكاد تسبق اظلالها. ولا تسل عما هناك من المراوح والقمصان والمظلات والقش المضفور وما اشبه مما يدخل في هذا الباب

وهناك ايضاً كثير من منسوجات الحرير والمخمل المعرّقة والموشاة على ضروب شتى وهي تشهد لراسميها بالمهارة في فن الرسم واختيار الالوان كما تشهد لصناعي انوالها ببلوغ الحد في التفنن والاتقان . وسواء كانت هذه الانوال يابانية او اوربية وسواء كان الرسّامون والحاكمة من الوطنيين او من الاجانب فصناعة النسج المتقن دخلت ربوع يابان ورسخت قدمها فيها وصار اليابانيون يباهون الفرنسويين والانكليز والالمانيين في اتقان منسوجاتهم ولا عجب اذا رأيناهم يباهونهم في كثرتها ورخصها واذا اقتدى بهم جيرانهم الصينيون والكوريون والهنود ونبقى نحن العثمانيين في ساقة كل اهالي المشرق بعد ان كان اجدادنا في طليعة امم الارض

الباب الرابع عشر في الصناعات الكيماوية وفيهِ خمسة فصول الاول في الكيمياء الصناعية والصيدلية والثاني في الوراقة والثالث في الدباغة والرابع في استخراج الطيوب والخامس في التبغ والتقاب (عيدان القصفور)

وهذا الباب مناسب للباب السابق ومعروض الى جانبهِ ولا تضرُّ رائحة التبغ فيهِ لان رائحة الطيوب تغلب عليها على حد ما قالهُ احد الظرفاء

ضرر المطابع

لا ورْدَ بلا شوك ولا نفع الاَّ ومعهُ شيءٌ من الضر. ومن شأن المضار انها تزيد وتنمو مع المنافع كما ينبع الشوك والقراص في الارض المحروثة المعدَّة للزرع. يعلم ذلك اهل الزراعة فيقربون النبات الذي يزرعونهُ بعضهُ من بعض حتى لا يبقى مجال للاعشاب الضارَّة واذا نمت رغماً عنهم واظبوا على استئصالها لئلاَّ تقوى وتخنق زرعهم. وعلى الذين يهتمون بمصالح العباد وتوفير المنافع لهم ودفع المضار عنهم ان يفعلوا مثل ذلك بما ينمو بين الناس من الشرور والمضار حيث يُنتَظر نمو الخيرات والمنافع. ويصدق هذا بنوع خاص على المطابع ونشر الكتب فان الناس يؤلّفون من الكتب النافع والضار والمصلح والمفسد والسمين والغث فلما كان نشر الكتب موقوفاً على اقلام الكتَّاب كان انتشار المنافع قليلاً وكذلك انتشار المضار. اما وقد كثرت المطابع وسهل طبع الكتب ونشرها فصار انتشار الكتب الضارَّة ميسوراً لاسيما وان جمهور العامة اميل الى السخافة والاوهام منهم الى العلم والحقائق

يغنينا عن الاسهاب في هذا الموضوع ما اظهرهُ احد الادباء بالاحصاء من انهُ لا يطبع كتاب علمي مفيد في هذا القطر حتى يطبع فيهِ عشرون رواية واكثرها مما لا فائدة من مطالعتهِ وبعضها يفسد الاذواق والاخلاق. وهذا الداء منتشر في البلدان الاوربية اكثر مما هو منتشر عندنا لكنَّ الاوربيين لم يغفلوا عنهُ بل احتاطوا لهُ وتراهم يعالجونهُ على اساليب شتى فعندهم الانتقاد المحص في الجرائد والمجلاَّت وعندهم الجمعيات العلمية والادبية حيث تذاع العلوم والآداب ولا يخلو بلد من بلدانهم من مدارس يتهذَّب فيها العقول ومكاتب تتوسع فيها المعارف. وعندهم ما لا يحصى من الصحف العلمية والادبية ينشئها كبار العلماء الذين لا يذكرون الاَّ الحقائق وهي رخيصة الثمن لكثرة ما يطبع وينشر منها فيسهل على كل احد الاشتراك فيها. هذه المزايا كلها تقاوم انتشار المضار والاضاليل او تمحو اثرها من النفوس

ولو كانت شكوانا من الروايات السمجة وكتب المجون لا غير لهان الامر لان هذه الكتب تُعرَف من عنوانها فلا يطالعها من يضنُّ بوقتهِ او يكرهُ ان يرى الفاحشة بعينيهِ. لكننا نشكو ايضاً مما تخفى مضارهُ على العامة وقد تخفى على بعض الخاصة. نشكو من الكتب التي تُنشَر لابسة حلة العلم وتظهر عليها دباجة التحقيق وفيها من السخائف والخرافات ما يزيد ظلمة العقول ظلمة ويرسخ الاوهام في النفوس

وقد كنَّا نرى هذه السخائف في الكتب العربية القديمة التي طُبعت قبل انتشار المعارف

لكنهم لم يستطيعوا ان يناظروا المعامل الاوربية فاضطروا ان يوقفوه بعد ان انفقوا عليه النفقات الطائلة . ولا امل بنجاح معامل الورق عندنا الاَّ اذا زاد عدد القراء اضعافاً فكثر انتشار الجرائد العربية حتى صار الورق الذي يستعمل فيها سنوياً يقتضي انشاء معملين او ثلاثة كلٌّ منها يصنع مليون كيلو في اليوم . وقد لا نقوى على مناظرة الاوربيين على كل حال لان الجانب الاكبر من الورق الرخيص خشب والخشب يؤتى به من اوربا واميركا فجلبهُ ورقاً ارخص من جلبهِ خشباً . وكذلك القوَّة المطلوبة لادارة آلات المعمل تستمدُّ من الفحم الحجري وهو وارد من اوربا ايضاً فتضاف اجرة شحنهِ الى ثمن الورق فيغلو بهِ

ويقال في انواع الورق واشكالها والوانها ما يقال في سائر المعروضات من الكثرة والتنويع فان من الورق ما هو صفيق كالرق ومنها ما هو شفَّاف كالزجاج ومنها ما هو ابيض كالثلج ومنها ما هو ملوَّن بكل لون معروف ومنها الصقيل والخشن والمنقوش وغير ذلك مما يطول شرحهُ ويتعذَّر وصفهُ

اما قناني الطيوب وحناجرها والازهار التي تستخرج الطيوب منها والخزائن التي عرضت فيها والرفوف التي وضعت عليها فقد قُصد بها كلها ان تسرَّ حاسَّة البصر باشكالها والوانها كما تسرُّ الطيوب حاسَّة الشم بطيب رائحتها

والتبغ معروض في كل مكان تقريباً في قصور الدول والاتفاليد وشان دو مارس كأنهُ اروج تجارة في الدنيا . وتفنن العارضون في عرض اوراقهِ مبسوطة وملفوفة وعرض سكائرهِ وآلات لفها والورق الذي يلف بهِ والاحجار (الغلايين) التي يحرق فيها . ولا ندري متى يعدل الناس عن عادة تفهها قليل وضررُها كثير و يزرعون الارض التي يزرعونها تبغاً طعاماً يتغذى بهِ الابدان وينفقون الاموال التي ينفقونها عليهِ في عملٍ مفيد لنوع الانسان

وقد اضحكني اهتمام الفرنسويين بعمل الثقاب (عيدان الكبريت او القصفور) لودفعهم الجوائز لمن يستنبط نوعاً منهُ خالياً من الفصفور السام والثقاب عندهم أغلى مما هو عندنا اضعاف الاضعاف كأن حكومتهم لم تجد غير هذا السبيل لجمع المال على اسلوب يشعر بثقلهِ الفقير كما يشعر بهِ الغني او اكثر لان زوجة العامل الفقير تضطر ان تستعمل من عيدان الثقاب اكثر مما يُستعمل في بيت جارها التاجر الغني لكن اهتمام الفرنسويين وغيرهم من الامم الاوربية بالقان هذه الصناعة قد رخَّص مصنوعاتها في بلادنا الى حد لم نعهد لهُ مثيلاً . وقد شاهدت معامل الثقاب في رحلتي الاولى الى اوربا ووصفتها فيها بما يغني عن اعادة الوصف